

## هوس الجموع بالآخرة وأخلاق العلمانيين

كتاب جمع محاورات في الفلسفة والأخلاق بين إمبرتو إيكو والكاردينال كارلو مارتيني



شكّلت الخطابات المتبادلة بين الفيلسوف والروائي الإيطالي إمبرتو إيكو، وكاردينال ميلانو كارلو مارتيني أحد أبرز الوجوه في الكنيسة الكاثوليكية، والتي ضُمت في كتاب "بماذا الإيمان"، قيمةً جوهريةً مُستمدّة من طبيعة ما يُنتج الحوار من تبادل أفكار بين ما يُعتبر طرفي نقى لقسايا مهمة تُشكل هماً إنسانياً يشارك فيه جميع الأطراف بغض النظر عن قناعاتهم أو أيديولوجيتهم، لاسيما وأن هذه الحوارات دارت في فترة حساسة كان فيها العالم يستعد لاستقبال ألفية جديدة بتساؤلات فكرية مُلحة لا تزال مطروحة إلى الآن.

حنان عقيل  
كاتبة مصرية



في كتاب "بماذا الإيمان" الذي نُشر لأول مرة عام 1997، وترجمته عواطف السعدي في كتاب صدر حديثاً عن دار أيكالو للطباعة والنشر، نجد حواراً متبادلاً بين طرف علماني يُمثله الفيلسوف الإيطالي إمبرتو إيكو، والطرف الآخر الذي يُمثل وجهة النظر المتديّنة ويمثلها كارلو مارتيني، كانت قد دعت إليه مجلة لبيرا الإيطالية عام 1995، وشمل ثمانين رسالة، يطرح إيكو في ثلاث منها أسئلة التي يجب عليها الطرف الآخر فيما تتبدل الأدوار في رسالة وحيدة يُجيب فيها إيكو عن سؤال مارتيني حول مصدر الفعل الأخلاقي عند العلمانيين.

## أسس الأخلاق

في واحدة من أهم الرسائل التي تضمنها الكتاب، وجّه الكاردينال مارتيني سؤاله إلى إيكو حول الأساس الذي يبني عليه العلمانيون بقيمتهم وإيمانهم بضرورة العمل الأخلاقي المستند على قيم أخلاقية مُطلقة، وتساءل: كيف يمكن أن يكون للعلمانيين أساس واضح للأخلاق في إطار ما بعد الحداثة إن كانوا لا يؤمنون بإله محدد؟ أي مبرر نهائي يمنحونه لأفعالهم؟ وكيف تحضن تلك المبادئ من الارتباك وعدم اليقين مع عدم وجود أسس غير قابلة للتفاوض مثلما هو الحال لدى المؤمن بشيء غيبي؛ شيء أسمى واكبر منه؟

يُجيب إيكو على السؤال الذي يُشكل وجهها من أوجه النقد لأسس الفكر العلماني لاسيما لدى الفئة غير المؤمنة بإله، بأنه "عندما يدخل الآخر في المشهد تولد الأخلاق"، فكل قانون أخلاقي يُنظم العلاقات الشخصية بما في ذلك العلاقة مع الآخر الذي يفرض القانون، وهو ما يعزز أهمية الاعتراف بدور الآخرين وضرورة أن نحترم ما فيهم من الموجبات التي لا تتصور أن تتنازل عنها لأنفسنا.

ينتقد إيكو ما أطلق عليه مارتيني الأسس المطلقة، فهي غير قادرة على منع المؤمن من ارتكاب الخطأ والخطيئة

رغم كل ما يمتلكه المؤمن من وعي بها، إذ أن إغراء الشر موجود حتى لدى الذي يتمتع بمفهوم ثابت عن الخير، وبالتالي فالأخلاق العلمانية يعترف بها حتى المؤمن، وهي نتاج الغريزة الطبيعية القائمة على نزوح عادل وعلى وعي ذاتي كاف لمنح ضمانات أساسية.

## نهاية العالم

يتساءل إمبرتو إيكو في واحد من خطاباته عن ذلك الهوس الجديد بالحديث عن نهاية العالم، حالة الرعب من النهاية والاحتفال بنهاية الأيديولوجيات والتضامن في دوامة نزعة استهلاكية لا مسؤولية، في ظل تلك الأوضاع، هل هناك مفهوم للأمل والمسؤولية إزاء المستقبل يمكن أن يكون مشتركا بين المؤمن وغير المؤمن؟ على ماذا يمكن أن يتأسس؟ وما هي الوظيفة النقدية التي تتبناها فكرة نهاية لا تنطوي على إهمال بالمستقبل وإنما بالدعوة المستمرة ضد أخطاء الماضي؟

يُجيب مارتيني على ذلك التساؤل بتوضيح أن أية كتابة عن نهاية العالم تحمل معنى طوباوياً كبيراً واحتياطي من الأمل لكنه يمضي جنباً إلى جنب مع استسلام مرير للحاضر، ويبقى الموضوع المهيم على نصوص نهاية العالم هو الهروب من الزمن الحاضر والاحتفاء بزمن مستقبلي من شأنه أن يخلق نظاماً من القيم النهائية المتطابقة مع آمال وتوقعات مؤلف الكتاب، وهو ما يمكن أن نجد ما يشبهه في كتاب سفر الرؤيا، فقراءة الكتاب من منظور مسيحي لا

تعود إسقاط لإحباط الحاضر وإنما امتداداً لتجربة الامتلاء أي الخلاص فلا تستطيع أي قوة أن تعترض أمل المؤمن. ويضيف مارتيني: يُنظر في المسيحية إلى التاريخ بشكل أكثر وضوحاً وكأنه خطوة نحو هدف يقع خارجاً عنه وليس متصلاً فيه، فالتاريخ له معنى واتجاه وهو ليس تراكماً لحقائق عينية وغير مجددة، هذا المعنى يقوي الشعور بالأحداث الطارئة ولا يضعها، ولكي تجعلنا بكثرة النهاية متبنيين إلى المستقبل وإلى الماضي الذي نحن بحاجة إلى فهمه بشكل حاسم، من الضروري أن تكون غاية، وأن تمتلك طابع القيمة النهائية الحاسمة والقادرة على تسليط الضوء على جهود الحاضر وإضفاء معنى عليه.

## حق الحياة

يطرح إيكو تساؤلات فلسفية متماسة مع الواقع حول من يملك حق سلب حياة الآخر؟ كيف يمكن الإقرار بحق الإجهاد وواد حياة طفل على وشك التشكل؟ متى تبدأ الحياة الإنسانية؟ هل يوجد من غير المؤمن من يمكنه التأكيد على أن كائننا ما ليس إنساناً إلا عندما تقدمه الثقافة للإنسانية بعد أن تزوده بلغة وتفكير مفصلي إلى درجة أن قتل طفل حديث الولادة لا يعد جريمة؟ يعتبر إيكو تلك القضية واحدة من النقاط



الدرجة، وهي في الآن ذاته دعوة إلى الاهتمام بالحياة في مواجهة التشرعيات المتعلقة بالإجهاد، وعدم السماح للإنسان بأن يقتل نظيره أو يدمر ذاته فلا يمكننا السماح لأي كائن بأن يقطع مسيرة حياة قد بدأت، فوادة طفل شيء مثير للإعجاب ومعجزة طبيعية علينا قبولها.

ويشارك مارتيني إيكو في أفكاره حول حق الحياة لكنه يشير إلى أنه ثمة مشكلة أخلاقية وإنسانية تتعلق بانتهاك شرط المودة والاهتمام بالطفل والذي يولد صراعاً في المجتمع، وهي مشكلة مدنية تتعلق بالسؤال عن الكيفية التي يمكن من خلالها مساعدة الأشخاص والمجتمع برمتهم لتجنب التمزقات، فالطفل كائن مثير للإعجاب ومعجزة علينا قبولها، وهناك مسؤولية تجاهه يجب العمل على تجنب انتهاكها بكل الأحوال لتحقيق قيمة الحياة الإنسانية.

## المرأة والرجل

يتساءل إيكو في خطابه الأخير عن أسباب استبعاد المرأة من الكهنوت في المسيحية؟ هل لأن الكتاب المقدس كُتب بطريقة التكيف مع سير الأحداث كي يتلاءم مع طبيعة الحضارة التي

## إيكو يتحدث عن أهل الأرض ومارتيني عن أهل السماء

يخاطبها ومن ثم جاء تجسيد الأرقام الثاني من الثالوث المقدس في هيئة رجل تماشياً مع طبيعة المكان والوقت؛ ليست هناك دلالة واضحة على أن المسيح أراد خلافاً لقوانين زمانه أن يعطي توجيهات واضحة حول المساواة بين الجنسين على الأقل على مستوى الخلاص؛ ما الأسباب العقائدية التي تمنع النساء من ممارسة الكهنوت؟

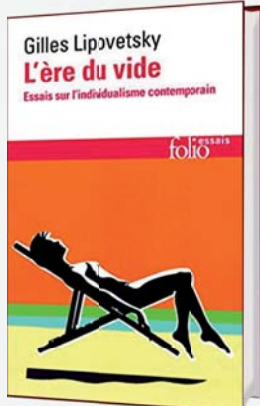
يعرض إيكو أفكاره حول الحدود التي يظن أن له الحق كعلماني في أن يتخطاها لاسيما إن تعلق الأمر بشؤون الكنيسة، مُبيناً أنه عندما تقرر أي سلطة بغض النظر عن ديانتها قراراً حول القضايا المتعلقة بمبادئ الأخلاق الطبيعية يجب على العلمانيين الاعتراف بهذا القانون، فهم لا يملكون أي سبب للاعتراض على حق السلطة بالتصريح

في واحدة من أهم الرسائل التي تضمنها الكتاب، وجّه الكاردينال مارتيني سؤاله إلى إيكو حول الأساس الذي يبني عليه العلمانيون يقينهم وإيمانهم بضرورة العمل الأخلاقي المستند على قيم أخلاقية مُطلقة

تتمثل أهمية ذلك الكتاب وما يماثله من كتب الحوارات المتبادلة في التأكيد على إمكانية الحوار كبديل للصراع، وعلى إمكانية الوصول إلى أرضية فكرية مشتركة رغم اختلاف المنطلقات الفكرية للمتخاطبين حال النزاع الطرفان بضوابط الحوار البناء، وهو في الآن ذاته تأكيد على جوهرية دور المثقف في مناقشة قضايا عصره والكشف عن أوجه العلل سعياً نحو إصلاحها أو تجاوزها.

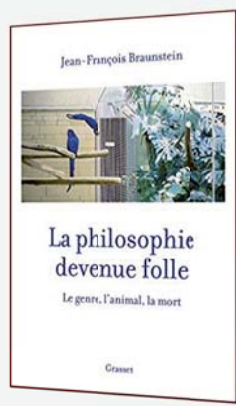
## الفردانية المعاصرة والفراغ

يعالج جيل ليوفتسكي مسألة الفردانية في الديمقراطيات المعاصرة التي تميزت بضمور المشاريع المشتركة وانحسارها، فالت إلى ما أسماه "عهد الفراغ"، عنوان كتابه الأخير، إذ بات كل فرد يخصص حياته لذاته ويعيش عيشة انتقائية وكأنه في مطعم. والكاتب يحلل، دون إصدار أحكام، الأشكال الحالية للفردانية ويصف، دون جهل بالأثار المحرّفة لنزع القدسية عن القيم التقليدية في السياسة والأخلاق، ظهور شكل جديد من الهيدونية الخائبة، فالترجسية وتقديس الطيب واللامبالاة وعدم أخذ الأمور مأخذ الجد تتبدى كلها في استشراف موضة التزلج (سورف أو رولر) وممارسة السخرية الذاتية خضوعاً هنا أيضاً لمتطلبات الموضة والإشهار، وكذلك الميل إلى كل ما هو خفيف (لايت) من الزبدي إلى المعارف التي ينبغي تخفيفها ما أمكن لمزيد ترغيب الناس فيها. كتاب ممتع يجمع لذة القراءة إلى نظرة نامل في مجتمعات ما بعد الحداثة.



## جنون الفلسفة

من القضايا التي تشغل الوسط الجامعي اليوم الجندر والحيوان والبيوتيقا، ولكن عندما نقرأ النصوص المؤسسة للمتخصصين في هذه المواد أمثال جون موني، جوديث باكلر، بيتر سنغر، ودونا هاروي، نلاحظ أن وراء العواطف النبيلة المعلنة عواقب عينية إن لم تكن مرئية. إذا كان الجندر غير مرتبط بالجنس فلماذا لا نغيره كل صباح؟ وإذا كان الجسد طوع وعينا، فلماذا لا نحوره إلى ما لا نهاية؟ وإذا لم يكن ثمة فرق بين الحيوان والبشر فلماذا لا نجري التجارب العلمية على الذين هم في حالة غيبوبة بدل الحيوانات؟ وإذا كان ثمة حيوات جديدة بان تعاش وأخرى غير جديدة فلماذا لا نتخلص من المعاقين بمن فيهم الأطفال "المعوقين" ولماذا لا نؤمّم أعضاء من هم في عداد الموتى لفائدة بشر واعدن؟ في "الفلسفة إذ جُت، الجندر والحيوان والموت"، يتوقف جان فرنسوا براونشتاين أستاذ الفلسفة بالسوربون عند عدد من مشاهير المفكرين في الغرب، ليناقش أفكارهم ويفضح تناقضاتهم ويبين مسيرتهم الذاتية، فيحلل ويفكك، ليستخلص أن من الخطأ إزالة الحدود بين الجنسين، وبين الحيوان من جهة والبشر من جهة أخرى، وبين الأحياء والأموات، والصواب أن نواجه تلك الحدود التي تشكلنا، مؤكداً أن الفلسفة تصاب بالجنون حين تنسى الإنسان.



## الجسد المصنوع

جديد الفيلسوفة الفرنسية سيليان اغاسينسكي كتاب بعنوان "الإنسان المفصول الجسد: من الجسد الطبيعي إلى البدن المصنوع" تيين فيه كيف أن إنسان هذا العصر يريد السيطرة على الطبيعة، وتغيير طبيعته نفسها، والتخلص من الجسد والموت والجيل الجنس. فبفضل القوة العلمية والتقنية صار بعضهم يحلم بتغيير جسدهم وإنتاج خلفته في المختبرات. وتتساءل هل سيصبح إنسان الغد بلا جنس محدد، ويولد بلا أب وأم، تقول الكاتبة "جسدنا ملك لنا ولكننا لا نملكه كصناع يمكن إعطاؤه أو بيعه، كما نفع بيت أو سيارة أو دراجة. هذا الخلط تغذيه عمداً أيديولوجيا ليبرالية متطرفة تريد إقناعنا بأننا يمكن أن نتنازل عن أجسادنا ما دامتنا ملكاً لنا". كتاب يحذر من مخاطر الليبرالية المتطرفة التي تعتبر كالفورنيا مركزاً لها، ومن انحرافات البيوتيقا.

